

بجاية المدينة والميناء

ودورهما في التجارة المتوسطية خلال العصر الوسيط*

Bejaia City Ports and their Role in the Mediterranean Trade during the Middle Ages

~~~~~ خديجة بورملة

صص43-57

Bouramla khadidja

طالبة مسجلة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط- قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران 1 أحمد بن بلة،

وعضو باحث في مختبر تاريخ الجزائر

bouramlakhadidja@yahoo.fr

تحت إشراف: أ.د عبد القادر بوباية

Boubaya abdelkader

أستاذ- تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ

-كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية - جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

boubaya.abdelkader@univ-oran1.dz

**Abstract:** Bejaia has been considered as one of the most famous ports of the Mediterranean Sea and particularly in the Central Maghreb. In the maritime history, Bejaia proved to be a strategic place for the Mediterranean western area and its harbour was secure as well as related to all the neighbouring regions. The port is located on an open bay surrounded by mountains where ships can safely and easily anchor, while caravans keep on flowing from all regions. This location has enabled Bejaia to become an excellent trade point and storage for goods coming from all territories. Its traders have done business with: West African, and Saharian and European merchants. Bejaia welcomed trade ships from Maghreb and Andalusia in addition to eastern countries and European ports. Major trade operations and their most important markets, chiefly took place in the Mediterranean Sea, and more precisely, in Bejaia. The city of Bejaia has transformed at a large commercial cross roads, where there used to be different goods, which European merchants have imported across the Mediterranean Sea. And in return, Bejaia has exported other items such as gold, slaves, wool, leathers, alum, tannic bark, wax, clay, etc from its traders' counterparts.

**Keywords:** Bejaia; Central Maghreb; Mediterranean Sea; trade; ports; goods; merchants; caravans; crucial regions.

\* تاريخ استقبال المقال: 2018/01/25، تاريخ المراجعة: 2018/03/14، تاريخ القبول: 2018/05/10

مقدمة: شكلت مدينة بجاية خلال العصر الوسيط، وذلك منذ اتخاذها عاصمة للحماديين، إحدى أهم مدن بلاد المغرب الأوسط، ولم ينحصر دورها في المجال السياسي كعاصمة مركزية للدولة الحمادية أولا، ثم عاصمة إقليمية في ظل الحكم الحفصي، بل تعداه إلى الجانب الاقتصادي، حيث أصبحت هذه المدينة وفي ظرف قصير جدا من أشهر المراكز التجارية الكبرى بحوض البحر المتوسط الغربي.

من جهة أخرى فإن التوجه البحري الذي عرفته بلاد المغرب الأوسط منذ القرن الخامس الهجري/11م، وخصوصا خلال القرن السادس الهجري/12م، سيكون له انعكاسه الإيجابي على نمو وتطور هذه المدينة، التي عقدت بها أكبر الصفقات التجارية، وقصدها التجار من مختلف المناطق، وهو الأمر الذي سيساهم بشكل مباشر في نمو التجارة الخارجية لهذه البلاد، فكيف برزت هذه المدينة؟ وما هو الدور الذي لعبته في التجارة المتوسطية لبلاد المغرب الأوسط؟

- مدينة بجاية وتطورها خلال العصر الوسيط: بعد أن شكلت قلعة بني حماد مركزا تجاريا هاما لبلاد المغرب الأوسط خلال القرن الخامس الهجري/11م، بدأت تدريجيا تفقد مكانتها السياسية والاقتصادية لصالح مدينة بجاية التي أصبح لها وضع تجاري مركزي في منتصف القرن السادس الهجري/12م حيث اندمجت تدريجيا في فضاء إسلامي ومتوسطي ومحلي<sup>1</sup>.

كان موقع بجاية البحري الحصين ومرفؤها الطبيعي قد لفتا الأنظار إليه منذ أقدم العصور؛ فبعدما شيد الفينيقيون مدينة قرطاجنة في القرن السابع ق.م اتجهت أنظارهم إلى الشواطئ الغربية الجنوبية للبحر المتوسط، وأنشئوا على هذه الشواطئ عددا من المراكز التجارية البحرية، وكانت بجاية أحد هذه المراكز، التي سيسمها الرومان صلداي (Saldae)، تلك التسمية التي ورثوها ربما عن الفينيقيين<sup>2</sup>، حيث جهزوها بميناء تجاري لعب دورا اقتصاديا واكتسبت أهمية عمرانية على عهدهم، لكن يبدو أن صلداي تلاشت شيئا فشيئا منذ استيلاء الوندال عليها سنة 430م، وقد سميت في عهدهم "غور" (Gour) أي الموقع الصخري، وغابت عنها المعطيات في العهد البيزنطي<sup>3</sup>.

أما بالنسبة للفترة الإسلامية، فلا نجد بالمصادر العربية أي إشارة توضح وضعية هذه المدينة خلال القرون الأربعة الأولى من التواجد الإسلامي، سوى إشارة واحدة من طرف ابن حوقل الذي يضعها ضمن قائمة المرافئ التي تفصل مدينة بونة عن جزائر بني مزغناي<sup>4</sup>، وهو في كتابه هذا يعطي الكثير من التفاصيل عن اقتصاد المدينتين السابقتين، ويكتفي بتعبير "مرسى" عند وصفه لبجاية، وهو دليل واضح على أن هذه المدينة كانت لا تزال في تلك الفترة قليلة الأهمية إذا ما قارناها بمدن أخرى يصفها ابن حوقل بشيء من التفصيل مثل بونة ومرسى الدجاج وجزائر بني مزغني وتنس ووهران وغيرها من المدن الساحلية.

وهكذا لا نجد وصفا دقيقا لهذه المدينة إلا عند البكري، وإن كان هذا الأخير لا يضعها في الجزء المخصص لوصف المدن في الإطار العام لوصف المسالك ببلاد المغرب، ولكن يضعها ضمن قائمة مراسي هذه البلاد، حيث يقول: «...ثم مرسى مدينة بجاية، أولية أهلة، عامرة بأهل الأندلس، وبشرقها نهر كبير تدخله السفن محملة، وهو مرسى مأمون شتوي...، ومرسى بجاية هو ساحل قلعة أبي طويل، وعلى هذا المرسى في تلك الجبال قبائل كتامة...»<sup>5</sup>.

في هذا النص يتحدث البكري عن التطور الذي بدأت مدينة بجاية تعرفه، وذلك قبل اتخاذها عاصمة للحمايين، وربطه من الناحية البشرية بالوجود الأندلسي وبالقبائل المحلية من كتامة من جهة، واتخاذها كمرسى تجاري لقلعة بني حماد من جهة أخرى، حيث كانت السفن التجارية تفد إليها محملة، وهو الأمر الذي بدأ يكسبها أهمية اقتصادية، بفضل ربطها لتجارة القلعة البرية وخاصة الصحراوية بالتجارة البحرية المتوسطية.

يتضح إذن أن بجاية كانت قرية نشيطة بفضل مينائها الصغير، وقد تكون نشأت حول بقايا صلداي، واكتسبت أهمية نسبية في منتصف القرن الخامس الهجري/11م بفضل استيطان الأندلسيين دون أن تصبح مركزا عمرانيا كبيرا، ويفسر نموها المحدود بطبيعة حركة التعمير عند المسلمين قبل قدوم بني هلال، إذ ركزوا على داخل البلاد عند بنائهم للمدن الجديدة لاعتبارات دفاعية وسياسية، وفي نفس

الوقت حافظوا على المدن الساحلية المؤسسة قبلهم، وطوروها وجعلوا منها استراتيجية دروعا بفضل الرباطات التي أقيمت بها<sup>6</sup>.

لكن إلى هنا لم تقم المدينة بأي دور سياسي أو عسكري وبقيت تابعة لقلعة بني حماد، وتمثل مرسى لها، أيضا على الصعيد الاقتصادي، طمست بقوة من قبل الموانئ على غرار مدينة بونة، إلى أن استقر الحكم الحمادي بها بقرار من الأمير الناصر بن علناس سنة 460هـ/1067م، وهذا ما يظهر على أنه تأسيس جديد، وهو انتقال الحكم نحو البحر<sup>7</sup>.

ولم يبدأ هذا الانتقال، ولم يتوجه سكان المغرب إلى المدن الساحلية إلا بعد الهجرة الهلالية واستقرار القبائل العربية بالمغرب الأوسط مع نهاية النصف الثاني من القرن 11م، والتي كان من نتائجها الإيجابية ازدهار التجارة البحرية بعد انتشار اللأمن والخوف بالطرق البرية وحتى بالأرياف، التي كانت تعتبر المحرك الأساسي لحضارة المغرب الوسيط<sup>8</sup>.

وهكذا وفي مدة قصيرة بعد سنة 443هـ/1052م تاريخ وصول بني هلال إلى حدود إفريقية، تغيرت هياكل المجتمع في إفريقية والمغرب الأوسط، مما ترتب عليه اختلال التوازن بين المدينة والظعن، وبين الساحل والداخل، وأصبحت السواحل تستقطب المدن لا سيما العواصم، فتغيرت الجغرافية العمرانية، ولم يعد من الممكن أن يتواصل وجود القلعة التي أصبحت معزولة تجاريا بعد اضطراب المسالك التجارية، فاختنقت شيئا فشيئا مما أدى بالحماديين إلى التفكير في عاصمة جديدة، ووقع الاختيار على بجاية تلك القرية البحرية الصغيرة<sup>9</sup>.

وعن اختيار موقع مدينة بجاية يقول الحموي: «مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن زيري بن مناد بن بلكين، في حدود سنة 457هـ،... وكان السبب في اختطاطها أن تميم بن المعز بن باديس صاحب إفريقية أنفذ إلى ابن عمه الناصر بن علناس محمد بن البعبع رسولا لإصلاح حال بينهما فاسدة، فمر ابن البعبع بموضع بجاية وفيه أبيات من البربر قليلة فتأملها حق التأمل؛ فلما قدم على الناصر غدر بصاحبه واستخلى الناصر...، وأشار عليه ببناء

بجاية، واستركبه وأراه المصلحة في ذلك، والفائدة التي تحصل له من الصناعة بها وكيد العدو؛ فأمر من وقته بوضع الأساس، وبنائها ونزلها بعسكره»<sup>10</sup>.

وقد كان لموقع بجاية مزايا متعددة، حيث شكلت من الناحية الأمنية ملجأ حصينا ضد الهلاليين، فجهتها بعيدة عن مجال تحركاتهم نظرا لأهمية الحواجز الجبلية، ومن الناحية الإستراتيجية استجاب الموقع لبعض الأسس التقليدية لاسيما عند الحماديين، فكما كانت القلعة واقعة على جبل عجيسة ومحمية به فإن الأمر نفسه بالنسبة إلى بجاية بوقوعها على جبل أمسيون (غورايا حاليا)<sup>11</sup>.

يشير صاحب كتاب الاستبصار إلى حصانة المدينة، حيث كانت محمية برا وبحرا، ومبنية على جبل صعب الوصول إليها، وهذا في قوله: «مدينة عظيمة، ما بين جبال شامخة قد أحاطت بها، والبحر منها في ثلاث جهات: في الشرق والغرب والجنوب، ولها طريق إلى جهة المغرب يسمى بالمضيق على ضفة النهر المسى بالوادي الكبير، وطريق القبلة إلى قلعة حماد على أعقاب وأوعار، وكذلك طريقها إلى الشرق، وليس لها طريق سهلة إلا من جهة الغرب، فلم يكن للعرب إليها سبيل، ولا كان يدخل من العرب إلا من يبعث إليه الملك لمصانعه على بلاد القلعة وغيرها، فيدخلها أفراد وفرسان دون عسكر...، وبجاية معلقة من جبل قد دخل في البحر يسمى مسيون، وعلمها سور عظيم، والبحر يضرب فيه»<sup>12</sup>.

وتبدو بجاية في نفس الوقت أقرب القرى الساحلية آنذاك إلى القلعة، وموقعها في صلب الدولة الحمادية أي أنه لم يكن في الأطراف المعرضة للأخطار لاسيما الأطراف الغربية وخطر زناتة، ومزية أخرى تتمثل في مراقبة الشرق والغرب بسهولة، ومن الناحية البشرية تقع بين قبائل بربرية من صنهاجة على استعداد للدخول في نفوذ الحماديين مثل قبيلة بجاية وتلكاته من بطون صنهاجة، وقبائل زاوة وسديكتش من كتامة من البرانس، وهي قبائل استقرار ومدر<sup>13</sup>.

هذا الموقع الإستراتيجي الهام لم يكن له ارتباط فقط بوقوع المدينة على البحر، إذ أنها من جهة أخرى تحتل موقعا ممتازا يمكنها من التحكم في الأقاليم المجاورة لها، وهي التي ستقوم بتمويلها في المستقبل بكثير من المواد المطلوبة خاصة بالنسبة للتجار الأوربيين، وعن ارتباط بجاية بالداخل والطرق المؤدية إلى ما جاورها من المدن يقول

الإدريسي: «مدينة بجاية قطب لكثير من البلاد، وذلك أن من بجاية إلى إيزلجان يوم وبعض يوم، ومن بجاية إلى بلزمة مرحلتان وبعض، ومن بجاية إلى سطيف يومان، وبين بجاية وباغاية ثمانية أيام، وبين بجاية وقلعة بشر أيام، وهي من عمالة بسكرة، وبين بجاية وتيفاش ست مراحل، وبين بجاية وقالمة ثمان مراحل، وبين بجاية وتبسة ستة أيام، وبين دور مدين وبجاية إحدى عشرة مرحلة، وبين بجاية والقصرين تسعة أيام، وبين بجاية وطبنة سبع مراحل»<sup>14</sup>.

تمتعت بجاية إذن بأوراق رابحة دون منازع لتصبح ميناء متوسطيا كبيرا، إنها مدينة مأهولة استقبلت بانتظام إسهام الهجرات القادمة من الداخل (القلعة والقيروان)، ومن الأندلس خصوصا، وكانت هي المخرج الطبيعي لجهة واسعة وغنية، حيث أن حوض الصومام وشبكة واسعة من الطرق فتحت لها جبال بلاد القبائل الصغرى، أبعد من هذا اتصلت بالعالم الصحراوي، وبالمحاور التي تربط بلاد الذهب بالمغرب عبر فتحه بسكرة، ووصل جزء من ثروات أرياف ومدن البلاد الخلفية إلى بجاية، وكان قابلا لأن يكون ضمن التجارة البحرية<sup>15</sup>.

دور المدينة في التجارة المتوسطية: على إثر تأسيس مدينة بجاية من طرف الأمير الحمادي الناصر بن علناس، واتخاذها عاصمة للحماديين، بدأت هذه المدينة تعيش مرحلة جديدة من التطور والازدهار، لتلعب دورا سياسيا هاما في تاريخ بلاد المغرب عموما كعاصمة للدولة الحمادية ولإقليم المغرب الأوسط، وهي الأوصاف التي نعتتها بها كتب الجغرافية، وواصلت دورها القديم في المجال الاقتصادي كمركز تجاري استقطب منذ البداية البحارة والتجار الأندلسيين خصوصا.

وقد ساعدت عدة عوامل على البروز السريع لمدينة بجاية منها على الخصوص دور السلطة السياسية الحمادية في إرساء مؤسسات صناعية وتجارية مثل دار صناعة السفن، والعامل الثاني تمثل في بناء أسواق خصوصا القيسارية بجانب دار الصناعة، سوق باب البحر، سوق الصوافين، سوق حومة باب المذبح وسوق البزازين، وهو ما شجع التجار على المجيء إلى المدينة والمكوث بالفنادق التي انتشرت بها خصوصا في المرحلة الموحدية، وكان لتأسيس دار السكة من طرف الأمير الحمادي المنصور دور كبير في تسهيل حركة المبادلات التجارية بعد سيطرة الدينار المرابطي

والدينار الفاطمي على التجارة المتوسطية، وقد تواصلت عملية سك النقود بالمدينة خلال العهدين الموحد والحقصي<sup>16</sup>.

من جهة أخرى وبالعودة إلى المصادر الجغرافية، تتفق أغلب هذه الكتابات على أن بجاية بعدما أصبحت عاصمة للدولة الحمادية تحولت إلى قطب تجاري بارز في بلاد المغرب عموماً، وهذا راجع إلى موقعها الإستراتيجي الهام، وهو ما جعل تجارة هذه المدينة نشطة وكبيرة، فعنها يقول الإدريسي: «ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة والقوافل منحطة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة»<sup>17</sup>.

وهو ما يؤكد صاحب الاستبصار في قوله: «وهي مرسى عظيمة تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم، وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر، وبلاد اليمن، والهند والصين وغيرها»<sup>18</sup>، ويظهر بأن المدينة أصبحت تؤدي دورا بحريا هاما في حوض البحر المتوسط، حيث استقبلت السفن التجارية من كل مكان.

وهكذا انفتحت بجاية على البحر المتوسط، وجلبت من هذا البحر قسما هاما من ازدهارها، واستقبلت منذ البداية، وحتى قبل تأسيس الناصر لها التجار المسلمين القادمين من الأندلس والمشرق، ثم في مرحلة ثانية وصل إليها التجار النصارى من أوروبا، ومع منتصف القرن السادس الهجري/12م، أصبح النشاط البحري التجاري للمدينة يأخذ حجمه الكبير والهام، كما غدت بجاية تعج بالتجار على اختلاف جنسياتهم، واختلاف المناطق التي جاءوا منها، وهو ما سيؤدي بالضرورة إلى التنوع في السلع التجارية على حسب تنوع مناطق الانتاج<sup>19</sup>.

ومنذ ذلك الحين أصبحت بجاية نقطة التلاقي بين المغرب وأوروبا، حيث شكلت مخزنا للسلع الأوروبية في انتظار إعادة توزيعها في اتجاهات مختلفة، وجلبت التجار الذين استقروا بها أحيانا من أجل عقد صفقاتهم التجارية، وقد كان لهذا التطور آثار هامة على المدينة، فهذا النشاط الذي نشأ بمجيء التجار الأوروبيين هو

مصدر ثروة وازدهار على الأقل لقسم من سكان بجاية وأقاليمها، حيث استطاعت في بعض الأحيان توجيه نشاطات الإنتاج الزراعي والحرفي لتتلاءم مع متطلبات سوق متسعة للضفة الشمالية للبحر المتوسط<sup>20</sup>.

من جهة أخرى ربطت بجاية تجارة الصحراء بتجارة المتوسط، حيث تعود القوافل إلى بلاد المغرب بالذهب والعبيد وبضائع أخرى، وتصل إلى المداخل الكبرى: غدامس وورجلان وسجلماسة وأغمات، لكن إلى هنا لم تكتمل الدورة التجارية الصحراوية، بل يبدأ التوزيع والتسويق، ومن هنا تبدأ آلية جديدة للتبادل المريح مع تجار المتوسط، ويبدأ معها أهم دور تقوم به بجاية في التجارة الصحراوية والمتوسطية على السواء؛ فمنها يتم تسويق الذهب والعبيد المجلوبين من بلاد السودان إلى دول حوض المتوسط، وبوساطة التجار الأوروبيين المتلهفين لاقتناء هذه السلع<sup>21</sup>.

ومن هنا أصبحت بجاية حلقة هامة في الدورة التجارية مع بلاد السودان، حيث كانت منطلقا ومقصدا للرحلات الصحراوية، وفي نفس الوقت منطلقا ومقصدا ومحطة عبور للرحلات البحرية المتوسطية؛ فهذه المدينة تجمعت تجارة بلاد السودان وتجارة المتوسط في نفس الوقت، حيث خلقت المعاملات وترابط المصالح آليات للتبادل شملت محطات متعددة ومجالات جغرافية واسعة: البحر المتوسط والمغرب والصحراء وبلاد السودان، وكانت بجاية حلقة رئيسية في هذه الآليات ومحطة محورية بين هذه المجالات<sup>22</sup>.

إن اكتساب بجاية لأهمية تجارية قصوى ليس في بلاد المغرب لوحدها، بل في حوض المتوسط عامة، يظهر كذلك في المعاهدات التجارية التي تم عقدها بين المسلمين والمسيحيين، حيث تنص إحدى المعاهدات التجارية التي عقدها الدولة الموحدية مع تجار بيزا<sup>23</sup> في سنة 1186م على حصر معاملاتهم التجارية في أربع مدن مغربية هي: سبتة ووهران وبجاية وتونس، وهو دليل واضح على أن هذه المدن تشكل المراكز التجارية الرئيسية في التجارة البحرية المغربية، وما يهمنها منها مدينة بجاية التي شكلت ميناءً تجاريا مقصودا بكثرة من طرف التجار الأجانب، حتى أن السلطة الموحدية عندما خفضت المكوس والضرائب التي فرضت على التجارة إلى نسبة 8% في



الموانئ المغربية، استئننت من ذلك مدينة بجاية التي احتفظت بنسبة العشر<sup>24</sup>، وهو ما يعتبر دليلا آخر على أهمية هذا المركز والمداخل الكبرى التي يوفرها لخزينة الدولة. تجدر الإشارة من جهة أخرى إلى أن بجاية لم تكن مرتبطة فقط بالتجارة المتوسطية الأوروبية، بل كان لها ومنذ فترة مبكرة ارتباط وثيق بالتجارة المتوسطية الإسلامية، حيث تشير وثائق الجنيزة<sup>25</sup> بالقاهرة إلى مكانة بجاية في هذه التجارة، خصوصا بسبب وقوعها على الطريق البحري الرئيسي الرابط بين المية والإسكندرية، والذي لعب فيه التجار البجائيون والمصريون وحتى اليهود دورا معتبرا<sup>26</sup>، وهذا قبل أن تنتقل زمام التجارة بهذا البحر إلى أيدي الأوروبيين، وأصبح الإيطاليون خاصة، هم المتحكمين في مسالكه البحرية ويقومون بتوزيع تجارته، وربطوا أخيرا تجارة المشرق بتجارة المغرب الإسلامي، ولكن في ظل صمت المصادر العربية وغياب الوثائق الأوروبية التي توضح نشاط التجار المسلمين في هذه الدورة التجارية، لا يمكن أن نعطي حكما مطلقا بانفراد التجار الأوروبيين في توزيع هذه التجارة بل تحكموا في قسم كبير منها.

وهكذا وبأخذها مكانة في التجارة المتوسطية، اندمجت بجاية في فضاء اقتصادي واسع، لم تكن مرتبطة فقط بالأسواق المسلمة وامتداداتها الآسيوية وإفريقية كما في نهاية القرن 11م وبداية القرن 12م، وبأسواق أوروبا الجنوبية أيضا، فعن طريق تجار الموانئ المسيحية الكبرى في إيطاليا وبروفانسيا وإسبانيا كانت بجاية على اتصال بمجمل البحر المتوسط الغربي منه والشرقي ومع بقية أوربا وآسيا

27

هذه العلاقات الواسعة التي أقامتها بجاية مع مختلف مدن وبلدان حوض البحر المتوسط، جعلت منها مراكزا تجاريا كبيرا تتنوع فيه السلع التجارية بين صادر ووارد، وبها عقدت الكثير من الصفقات التجارية التي عادت بفائدة كبيرة على اقتصاد المدينة خصوصا، وعلى اقتصاديات المغرب الأوسط على وجه العموم.

أما عن السلع التي كانت تصدرها المدينة وجلبت إليها التجار الأجانب، فهي تتشكل في البداية من الذهب والعبيد<sup>28</sup>، وهما السبب في قدوم تجار أوروبا خصوصا إلى هذه المنطقة، ثم الأصواف والجلود التي شكلت أهم صادرات بجاية إلى البلدان المتوسطية وخاصة الأوروبية، حيث نجد الكثير من الإشارات في الوثائق الأوروبية

وخاصة الإيطالية<sup>29</sup> إلى صوف بجاية سواء في شكل زجاج بدهنها أو مغسولة<sup>30</sup>، وإلى الجلود<sup>31</sup> التي أصبح تصديرها يشكل واحدا من الأقسام المفتاحية لتجارة بجاية<sup>32</sup>، كما تشهد الوثائق الجنوية على تصدير الشبّ انطلاقا من بجاية منذ القرن 12م<sup>33</sup>، ومواد أخرى لها ارتباط بالصباغة والدباغة مثل قشور بجاية<sup>34</sup> التي كانت معروفة لدى الأوروبيين، وقاموا باستيرادها بكثرة من المدينة.

هذا إضافة إلى الشمع الذي اشتهرت بجاية بإنتاجه، وكانت تزود أوروبا في العصر الوسيط بكثير من حاجاتها من هذه المادة، ويكفي أن نذكر أن بجاية هي التي منحت اسمها الفرنسي لمادة الشمع، لكي ندرك إلى أي درجة كانت أوروبا تعتمد على هذا البلد للحصول على الشمع للإستضاءة<sup>35</sup>، وبعض المواد المصنعة حيث نجد بعض الإشارات إلى فخار وخزف مدينة بجاية، إذ يذكر ماس لاتري وجود أوعية فخارية أو من الخزف المذهب في قائمة جرد لمحتويات صيدلية بجنوة تعود إلى سنة 712هـ/1312م<sup>36</sup>.

لكن تجدر الإشارة هنا إلى عدم إمكانية رصد كل السلع التي كانت بجاية تعمل على تسويقها إلى بلدان المتوسط، وهذا راجع إلى التنوع الكبير في هذه المنتجات من جهة، ثم إلى تلك الديناميكية التي عرفت المبادلات التجارية خلال العصر الوسيط، حيث نجد بعض المواد البجائية في قائمة صادرات بجاية، وفي نفس الوقت في قائمة وارداتها.

في الأخير يمكن القول بأن بجاية وفي ظرف قصير جدا تحولت من قرية بربرية صغيرة على البحر إلى عاصمة من عواصم بلاد المغرب الأوسط، وأدت دورا سياسيا بارزا، لكن دورها في الجانب الاقتصادي كان أكبر، حيث تحولت إلى أحد أهم المراكز والموانئ التجارية الكبرى بحوض البحر المتوسط، وأصبحت تستقبل السفن التجارية القادمة من مختلف مناطق البحر المتوسط سواء الإسلامية أو غير الإسلامية، وبها عقد التجار المغاربة والمسلمون، إضافة إلى تجار أوروبا أكبر العمليات التجارية وأهمها بهذا البحر.

ميناء بجاية ودوره التجاري: رأينا سابقا كيف تطورت بجاية من مجرد مرسى طبيعي آمن إلى مدينة تجارية محورية في التجارة المتوسطية، ولا شك أن هذه المكانة قد

ساهم فيها كذلك ميناؤها الذي تطور هو الآخر، وأصبحت له هياكله التجارية التي تستقبل السفن التجارية والتجار الأجانب، وتنظم سير العمليات والصفقات التي كانت تعقد به.

تتفق أغلب الكتابات الجغرافية على أهمية الموقع الطبيعي المتميز لميناء بجاية، وهو الأمر الذي تنبه إليه البحارة الأندلسيون، ولذا استغله تجارهم أولاً، ثم استغلته السلطة الحمادية ثانياً، بدليل أهمية دار صناعة السفن الموجودة به، والتي استمرت في أداء دورها لفترات طويلة من الزمن.

تأسست هذه الدار منذ عصر الحماديين، وشكلت خلال العصر الوسيط داراً من أهم دور صناعة وتعمير السفن التجارية والحربية، وذلك راجع إلى وفرة المواد الأولية لبناء السفن، منها الأخشاب والزفت الجيد والحديد<sup>37</sup>، إذ تفرد صاحب الاستبصار برواية أن بجاية أوت في العصر الموحدى مركزين لبناء وتعمير السفن<sup>38</sup>، مما يشير إلى اهتمام السلطة والسكان بسياسة تتمين خطوط الدفاع والهجوم من جهة ثم الرغبة في الربح التجاري من جهة أخرى، وهو ما أدى في الأخير إلى ربط المدينة بمراكز التجارة والصناعة والحضارة في العصور الوسطى، أي تحقق بفضل نشاط الميناء ودار صناعته الغرض الاقتصادي والحربي معا<sup>39</sup>.

والملاحظ كذلك أن دار الصناعة ببجاية بقيت محافظة على مكانتها هذه لفترة طويلة، فإلى غاية النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/14م كانت هذه الدار لا تزال من أهم دور الصناعة بالمغرب الأوسط، حيث زارها السلطان المريني أبو عنان فارس خلال الرحلة التي قام بها لإخضاع مجموعة من مدن هذه البلاد التي كانت خارجة عن سيطرته، وذلك سنة 758هـ/1357م، وهو ما يشير إليه ابن الحاج النميري في رحلته قائلاً: «...فدخل ريبض بجاية قاصداً دار صنعتها، ناظراً من هنالك إلى ما بهر من منعتها، فتفقد ما وجد بدار الصنعة هنالك من الأجفان، وأمر بدفعها لقهر أهل الغي والعدوان...»<sup>40</sup>.

تجدد الإشارة هنا إلى أن ميناء بجاية لم يكن ليبلغ هذه الأهمية لولا خصائصه الطبيعية، إذ يقع في قعر جون يشكل شبه قوس عرضه نحو 28 ميلاً، وعمقه في المتوسط ثمانية أميال في منتصف امتداد شواطئ المغرب الأوسط<sup>41</sup>، وعن هذا الموقع

يقول العمري: «وأما بجاية فهي مدينة قديمة مسورة... في سفح جبل يدخل إليها جون من البحر الشامي يعبر بالمراكب إليها»<sup>42</sup>.

ولعل العمري في نصه هذا يشير إلى أهمية موقع المدينة بصفة عامة، ووقوعها في قعر جون من جهة، واتصال المراكب بالمدينة عن طريق الوادي الذي كانت السفن تعبره في العصر الحمادي مثقلة بالبضائع، ويبتدئ تقوس هذا الجون شرقا عند رأس العوانة (كافالو)، وينتهي غربا عند الذراع الذي ينحدر من جبل امسيون، ثم ينغمس في البحر تاركا فوق السطح ثلاثة رؤوس، هي رأس بوحاي (Le Cap Noir) في الوسط، ورأس بواك (Cap Bouac) في الجنوب، والرأس المثقوب (Cap Carbon) في الشمال<sup>43</sup>.

ويشكل هذا الجون مخبأ محميا من الضباب والرياح الشمالية الغربية بفضل عرف امسيون ومعكوف رأس بواك، لذلك قال عنه البكري أنه مرسى مأمون شتوي<sup>44</sup>، وتوفر الرؤوس الثلاث إمكانية مراقبة البحر عن بعد، وتهدي البحارة عن بعد للوصول إلى الميناء<sup>45</sup>.

يتمتع الموقع بمزية أخرى ويوفر أماكن اقتراب للسفن من الرصيف؛ فيرسم الساحل ثلاثة خلجان صغيرة أمكن استعمالها كموانئ في مختلف العصور، الجون الأكثر شمالا هو الذي يشكله أقصى جبل قوراية، مبتعدا عن المدينة وضيقا، بعمق من 7 إلى 8 أمتار، وملائم للوصول السفن، شكل نقطة التموين بالماء، ويمكن أنه كان ميناء أول استقرار فينيقي، والأكثر قربا من السور هو جون سيدي يحيى (الميناء البترولي الحالي)، وهو أيضا واسع وعميق، رست به السفن كما يشهد على ذلك اسم الباب الذي يصل إليه وهو باب المرسى<sup>46</sup>.

ويقال بأن الناصر بن علناس هو الذي بنى الميناء الجديد، والمرجح أنه بناه حذو المرسى الذي كان يستعمله تجار الأندلس، وبالتالي فالمرسى القديم هو الذي كانت تستعمله هذه الجالية، لكنه لم يتعطل بعد بناء الميناء الجديد، وليس من المستبعد أنه تحول إلى مرسى عسكري أو مرسى للقرصنة لاسيما وأن سوق الأسرى بحومة المذبح الذي كان قريبا منه، ومن الممكن أنه أصبح يكمل نشاط الميناء الجديد مثل استقبال السفن التي تنوي الرسو لمدة طويلة أو تلك التي لم تجد مكانا أو السفن المعطوبة إلى ما يشابه ذلك<sup>47</sup>.

إذن كان الميناء الرئيسي يقع في أسفل المدينة أمام باب البحر، وكان العمق الطبيعي للمياه ما بين 5 و7 أمتار ونصف، مع قعر من رمل أو وحل، وتجد السفن خصوصا حوضا واسعا ومحما في اتصال قريب من المدينة، حتى وإن كانت السفن لا ترسو به وتبقى على بعد معين من الأسوار، حيث تمكنت الزوارق الصغيرة فقط من التقدم نحو باب المدينة، في المقابل، من المحتمل مرور القوارب العاملة على التنقل إلى الرصيف تحت هذا الباب للوصول إلى الحوض الصغير إلى ما بعد السور إلى أرصفة التفرغ<sup>48</sup>.

وبالوصول إلى الرصيف يصبح التجار وأمتعتهم تحت مسؤولية ومراقبة صاحب المدينة، ويدخلون فعليا في فضاء السيادة الإسلامية، ويظهر أن باب البحر وحارته النشطة شكلت أول نقطة اتصال بين التجار والسكان البجائيين، وكانت من أكثر الأحياء نشاطا في المدينة، وبها كانت تودع البضائع في انتظار تسجيلها في الديوان، الذي كان نقطة عبور إجبارية لكل تاجر يرغب في التجارة ببجاية وجهتها، هذا الجهاز الجوهري لحياة الميناء كانت وظيفته الرئيسية هي تحصيل الرسوم المفروضة على المعاملات المالية لصالح بيت المال<sup>49</sup>، وهو ما سيساهم في ثراء المدينة وتطورها إلى آخر العصر الوسيط.

وبهذا الديوان وبمخازنه كانت تتجمع الكثير من البضائع الصادرة والواردة، إلا أن الكميات الهامة هي السلع الواردة التي جلبها التجار الأوروبيين عبر البحر، فمن بين التنظيمات التي وضعتها السلطات المغربية بغرض تسهيل عملية المبادلات التجارية من جهة، وكذا رصد البضائع التي جلبها التجار الأجانب بهدف تحصيل الضرائب، والتي يمكن حصرها في المواد التي كان الأوروبيون يتحكمون في نقلها وتوزيعها، مثل التوابل والعطور ومواد الصباغة والمنسوجات، والمواد الزجاجية والجواهر والمعادن والأخشاب، وهي السلع المطلوبة ببجاية.

في الأخير تجدر الإشارة إلى أن الموانئ المغربية عامة، أصبحت تلعب دورا محوريا في نمو التجارة البحرية، وتنقل التجار بعد تزايد الضغط الهلالي على الطرق الداخلية، وخاصة مع نهاية القرن السادس الهجري/12م<sup>50</sup>، إذ انتقلت التجارة الخارجية من الطرق البرية إلى المسالك البحرية، وبرزت مجموعة من المراكز التجارية التي كانت في

أغلبها مدن ساحلية بمراسمها البحرية، ولعل أشهرها مدينة وميناء بجاية اللذين شكلا خلال العصر الوسيط بالنسبة لبلاد المغرب الأوسط مركزا تجاريا بحريا ذو أهمية خاصة، إذ ربط التجارة الداخلية، وخاصة الأقاليم التابعة لبجاية، بالتجارة الخارجية البحرية من جهة، وأبعد من ذلك ربط التجارة الصحراوية بالتجارة المتوسطية من جهة أخرى، ولشهرة المدينة والميناء أصبحا مقصدا للتجار من مختلف مناطق العالم المتوسطي.

#### الهوامش:

- 1- علاوة عمارة: «التطور العمراني والتجاري لمدينة بجاية في العصر الإسلامي الوسيط»، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 2008/26، ص: 240--2- إسماعيل العربي، دولة بني حماد، ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص: 186--3- صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2006، ص: 35--4- ابن حوقل أبو القاسم، كتاب صورة الأرض، الطبعة 02، دار صادر، بيروت، دت، ص: 76.
- 5- البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، ص: 268--6- صالح بعيزيق، المرجع السابق، ص: 38، 41--7- دومينيك فاليرين، بجاية ميناء مغربي (1067-1510)، ترجمة: عمارة علاوة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014، ج1، ص: 56، 60--8- علاوة عمارة، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص: 142--9- صالح بعيزيق، المرجع السابق، ص: 49-50-10- الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، مج1، ص: 339--11- صالح بعيزيق، المرجع السابق، ص: 55-12- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص: 129-130.
- 13- صالح بعيزيق، المرجع السابق، ص: 55-56-14- الإدريسي أبو عبد الله الشريف، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص: 162.
- 15- دومينيك فاليرين، المرجع السابق، ص: 307-16- علاوة عمارة، التطور العمراني والتجاري لمدينة بجاية ...، ص: 241 - 242-17- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 162-18- الاستبصار، ص: 130-19- دومينيك فاليرين، المرجع السابق، ص: 309--20- نفس المرجع، ص: 309-310-21- صالح بعيزيق، المرجع السابق، ص: 194.
- 22- نفس المرجع، ص: 203-23- هي المعاهدة التي عقدها يعقوب المنصور الموحد مع جمهورية بيزا في 15 نوفمبر 1186، انظر: M,L, De Mas Latrie, Traité de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge, Paris, 1866, p 51.
- 24- تم تخفيض نسبة 10% المفروضة على التجارة بالموانئ المغربية على عهد عبد المؤمن بن علي بالنسبة لتجار جنوة، وذلك على إثر الاتفاق التجاري الذي عقد بينهم سنة 1160 أو 1161م، انظر: Mas Latrie, Ibid, p: 47.
- 25- الجنيزة كلمة عبرية مأخوذة عن الأصل الفارسي والعربي "جنازة"، وأوراق الجنيزة هي أوراق مكتوبة باللغة العربية بحروف عبرية تتصل بالنشاط الاقتصادي لليهود في العصور الوسطى، وتحتوي الأوراق المكتشفة في القاهرة في سنة 1889-1890 م على وثائق ومكاتبات بين بعض الأسر التجارية اليهودية تتعلق بالمعاملات التجارية، والإيجارات، والأسعار، والمقايسات، بالإضافة إلى مئات الوثائق التي تحوي طلبات وشكاوى مرفوعة إلى السلطات الإسلامية، وقد عكف على دراسة هذه الأوراق عدد من المستشرقين المتخصصين في التاريخ الاقتصادي من أمثال: مان وجيل وستيلمان وجويتين، ورغم أن أوراق الجنيزة تختص

بأوساط اليهود إلا أنها تمدنا بمعلومات قيمة عن كثير من الأنشطة المتعلقة بغير اليهود، وتقدم لنا صورة واضحة عن مجتمعات حوض البحر المتوسط فيما بين القرنين الخامس والثامن الهجريين / 11-14 م، محمد الحافظ النقر، التجارة الداخلية والخارجية للعالم الإسلامي في العصر الوسيط، ط 1، دار المسار للنشر والتوزيع، الأردن، 2002، ص: 109، ولمزيد من التفاصيل، انظر:

S. D. Goitein, A Mediterranean Society, the jewish communities of the world as portrayed in the documents of the cairogeniza, Economic Foundations, University of California Press, 1967, vol1, pp : 1-28.

26- علاوة عمارة، التطور العمراني والتجاري لمدينة بجاية ...، ص: 242--27- دومينيك فاليرين، المرجع السابق، ج 2، ص: 789.  
28- تجدر الإشارة هنا إلى أن بجاية وإضافة إلى العبيد السود القادمين إليها عبر التجارة الصحراوية، تزودت من مصدر آخر لهذه السلعة ألا وهو القرصنة، التي كانت واسعة الانتشار بين المسلمين والمسيحيين بكل البحر المتوسط، وشكلت مصدرا هاما للعبيد والرقيق، لمزيد من التفاصيل، انظر: Mas Latrie, Op Cit, p : 216

29- ورد في الوثائق التي أدرجها ماس لاتري في كتابه " معاهدات السلم والتجارة " العديد من الإشارات إلى الصوف البجائي، منها: الوثيقة رقم 10 من وثائق جمهورية بيزا، وهي عبارة عن عقد استئجار مركب بين مفاوضين (تجار) وأصحاب السفينة لرحلة إلى بجاية في 10 أوت 1263، المادة 2، انظر: Mas Latrie, Ibid, partie documents, p : 41

30- Mas Latrie, Ibid, p : 221.

31- ورد في وثيقة تعود إلى القرن السادس الهجري / 12 م، تحمل تاريخ 19 ماي 1181 م، وهي رسالة بعثها كل من أرك، قناصله، مستشاري وشعب بيزا إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخليفة الموحد، تتعلق بالمصاعب التي يلاقها تجار بيزا لجلب الجلود وجلود الماعز من مملكة بجاية، انظر: Mas Latrie, Ibid, partie documents, p : 27

32- دومينيك فاليرين، المرجع السابق، ج 1، ص: 515--33- نفس المرجع، ص: 524-527--34- وردت ضمن دراسة ماس لاتري تحت تسمية "iscorza di Buggiea"، Mas Latrie, Op Cit, p : 217، 35- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 247--248

36- De Mas Latrie, Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou MAGREB avec les nations chrétienne au moyen âge, Paris, 1866, p : 382.

37- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 161--38- الاستبصار، ص: 130--39- موسى لقبال، « ميزات بجاية وأهمية دورها في مسيرة تاريخ المغرب الأوسط في العصور الوسطى »، مجلة الأصالة، العدد 19، سنة 1974، ص: 07--40- النميري ابن الحاج، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد: محمد ابن شقرون، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990، ص: 266--41- اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 183--42- العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الرابع: ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب، تحقيق: حمزة أحمد عباس، الطبعة 01، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2002، ص: 146--43- اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 183 - 184--44- البكري، المصدر السابق، ص: 268--45- صالح بعيزيق: المرجع السابق، ص: 314--46- دومينيك فاليرين، المرجع السابق، ص: 314--47- صالح بعيزيق، المرجع السابق، ص: 217--48- دومينيك فاليرين، المرجع السابق، ص: 315- 317

49- نفس المرجع، ص: 321-322--50- علاوة عمارة، الموانئ الجزائرية من خلال مشروع أطلس موانئ ومسالك العالم الإسلامي الوسيط (APIM)، الملتقى الدولي " الموانئ الجزائرية عبر العصور، سلما وحربا "، جامعة الجزائر 2، 7-8 ديسمبر 2009، ص: 126.